الطب المصري

بين عهدين

لمعالي الدكتور علي ابراهيم باشا(1)

كثير من الشباب المصريين الناشئين في هذا الجيل ، لا تتجه أفكارهم الى الموازنة بين حالة الأطباء المصريين الآن ، وبينها من نحو أربعين سنة ، ولا يدور بخلدهم أن حالة الأطباء المصريين التي هم عليها الآن تختلف كثيراً عما كان عليه حالة اخوانهم، فهم لا يشعرون بالصعوبات التي قامت في طريق اخوانهم المصريين اذ ذاك ، ولا يقدرون المشاق التي استنفدت كثيراً من جهودهم وأوقاتهم حتى استطاعوا أن يذللوها بقوة حزمهم ، وصادق عزمهم

ولقد دفعتُ في الحياة العملية في ذلك العهد كما يدفع كل مبتدىء ، على حالة من العلم لم تصل بعد الى درجة النضوج المرضية، تعوزني التجارب التي هي ثمرة العلم وغايته ، كما انها كذلك مصدره ومنشؤه . فكان من الطبيعي أن اصادف صعوبات كثيرة ، وأواجه مشاق متعبة ، في أعمالي الحكومية ، وكذلك في أعمالي الطبية الخارجية

كان الأطباء المصريون في أعمالهم الحكومية — بمدرسة الطب ، وبمصلحة الصحة — لا يتولون الا المناصب الصغيرة ، لا يتعدونها الى ما هو أرقى منها ، فلا كفاية تشفع لهم ، ولا مقدرة تنفعهم، في حين كان الأجانب يستأثرون بالمناصب الكبيرة فيهما أياً كان حظهم . ففي مدرسة الطب لا يسمح للطبيب المصري ان يرقى الى أكثر من مساعد أستاذ ، وفي مصلحة الصحة لا يرقى الى أكثر من مفتش صحة في مديرية أو رئيس لمستشفى بأحد الأقاليم

واعتقد أنكم تدركون النتائج الخطيرة التي تترتب على مثل هذه المعاملة وتحسون الأثر البالغ ، الذي كان يجري في نفوس المصريين ، وتقدرون ما كان يتبع ذلك من اضعاف العزائم وقتل المواهب ، ونشر أسباب اليأس في النفوس

على هذه الحالة كان الطبيب المصري في عمله الحكومي من نحو أربعين سنة . أما العمل الحر فلم يكن فيه أسعد حالاً ، ولا أحسن بالاً ، فقد كان المصري لا يثق بطب الطبيب المصري ، ولا

(1) مقدمة من خطبة ألقيت في حفل تكريمه

يطمئن الا الى الطبيب الأجنبي ، مهما يبعد مكانه ، او يرتفع اجره . فانصرف الناس الى الاطباء الأجانب ، ورحلوا اليهم في العواصم والمدن الكبرى ، ما داموا قادرين على الأجر ونفقات السفر ، ولم يكن يلجأ الى الطبيب المصري الا الفقير المضطر الذي أعوزه المال ، وأقعده العدم

كانت هذه حالنا في ذلك العهد . وربّ سائل يسأل : كيف كان هذا التدهور السريع ، بعد أن سبقنا بزمن قريب ، نوابغ من الأطباء المصريين العلماء ، طبقت شهرتهم الآفاق ، حتى كانوا مضرب الأمثال، واليهم كانت تشد الرحال ؟ فهل لهذا التدهور السريع من اسباب معقولة ؟

نعم لهذا التدهور السريع اسباب كثيرة : من اهمها انصراف الغالبية العظمى من الاطباء المصريين عن العمل الحر، واقبالهم على الوظائف الحكومية وقصرهم على القيام بمطالب الوظيفة على أيسر الوجوه، وأدناها الى الراحة، وأدعاها الى التخلص من المسؤولية . ومنها أيضاً حرصهم على جمع المال حرصاً شغل حيزاً كبيراً من وقتهم وتفكيرهم، فقعدوا عن الدرس ، وفترت عزائمهم في التحصيل ، وكلما مرّ عليهم الزمن ، أنساهم شيئاً مما علموا ، والنسيان آفة العلم والدرس حياته

وهناك سبب خلقي ، كان له اسوأ الأثر وأبلغه في هذا التقهقر السريع : ذلك هو انتشار النميمة والغيبة بين كثير من الزملاء — سامحهم الله — فقد كان بعضهم ينال من بعض بالطعن المر والتجريح المزري ، وينشر ذلك بين المرضى وغيرهم من الأهلين ، فيحط كل منهم من قدر صاحبه ، ويخفض من منزلته . وعرف الناس ميلهم الى ذلك ، فصار المريض يشايع طبيبه المعالج ويتقرب اليه بالطعن في الطبيب الذي كان يعالجه من قبل، فيكيل له السباب كيلاً ، ويصب عليه اللعنات صباً ، ويعتقد ان هذا خير ما يجلب رضا صاحبه وأفضل ما يستدر به عطفه وعنايته .

فهذا الاضمحلال الخلقي الفاضح ، وذلك الضعف الفني المزري ، كان له أسوأ الأثر في فقدان الثقة بالطبيب المصري والحط من قدره ، بين الأهلين بوجه عام ، وبين أرباب المهن الأخرى ، في الادارة والقانون والهندسة ، وما اليها بوجه خاص

والآن — وقد وصفت لكم هذا الداء وبيلاً ، وصورته لكم تصويراً مهولاً — أتظنون انه من المعضلات التي تحتاج في شفائها الى جهود الجبابرة ، بل الى المعجزات الفنية وخلق وسائل غير مسبوقة . كلاّ يا سادة . فكما انكم تعلمون ان عظم الداء لا يفيد حتماً صعوبة العلاج وخطورة المرض ، ولا تستلزم دائماً علاجاً شاقاً مضنياً . كذلك الحال هنا ، فالأمر في غاية الخطورة ، والعلاج في غاية السهولة هو مبدأ سليم بسيط ، وتنفيذه سهل هيّن ، وهو ميسور لكل انسان ويتلخص في كلمة واحدة هي : « الاتقان » !

يجب على كل ذي صناعة أو فن أو عمل ان يتقنه ، وهذا لا يأتي إلا بالاخلاص له ، والانقطاع لدرسه ، والتوفر على مسائله ، فان هذا يؤدي حتماً الى النبوغ فيه ، ثم الى الشهرة

به ، وهما لا ينكران ، ولا يغمط صاحبهما حقه من الانصاف ، ونصيبه من الاعظام

على هذا الأساس المتين الثابت ، اتفق جماعة من الأطباء المصريين ، وتعاونوا وجاهدوا جهاداً طويلاً ، وناضلوا نضالاً شديداً ، للتغلب على شتى الصعوبات . ومن الغريب المؤلم ان معظم المعارضة كان من بعض اخوانهم المصريين ، أكثر مما كان من العنصر الأجنبي ولكن العاقبة كانت للمتقين

كان مما اتخذته هذه الجماعة من الوسائل لتحقيق الغرض المنشود ، إنشاء المجلة الطبية المصرية وإنتشارها المضطرد في جميع البلدان الأجنبية المشتغلة بأمراض المناطق الحارة ونجاح مؤتمراتها السنوية في الأقطار الشقيقة والجمعية الطبية المصرية وما ولدت من جمعيات فرعية لشعب العلل المختلفة والصرح العظيم الذي بني لها . وإذ ذاك وضعت المبادىء المستقيمة موضع التنفيذ وحلت الأخلاق القويمة محل الرماية . فصار المقام الأول للبحث العلمي المفيد ، والكفاية الممتازة الجدية ، والخلق العالي المتين . وبهذا وما اليه من الوسائل استطاع أفراد هذه الجماعة أن يحلوا عن جدارة واستحقاق ، محل الأجانب عندما قامت الحرب العظمى . وهنا أتيحت الفرصة للمصريين ، فأظهروا الكفاية الجديرة بنسل الفراعنة العظام ، وأثبتوا النبوغ المعروف عن سلالة العرب الأمجاد . فلم يسع الأجنبي الا ان يعترف فيها بعد بما أنكره من قبل . وعندما وضعت الحرب أوزارها ، لم يكن في استطاعتهم نكران هذا الفضل الدائم ، ولم يعد في مقدورهم الغض من هذا النبوغ الرائع ، فاستقر المصريون في المناصب العالية التي شغلوها ، بعد ان كانوا محرومين إياها

أما التقدم الذي أحرزته كلية الطب ، فالفضل فيه راجع الى عدد من اخواني الأطباء المصريين ، على جانب عظيم من الوطنية الخالصة ، والغيرة المحمودة . فعندما أولاني اخواني الأطباء عزيز ثقتهم بانتخابي عميداً للكلية ، قابلت ثقتهم بي بأضعاف من ثقتي بهم وخبرتهم على اخلاصهم لي بفيض من ولائي لهم . فاتحدت غاياتنا جميعاً ، وصدقت عزيمتنا ، على النهوض بالكلية والتقت أغراضنا كافة عند رجاء واحد وغاية واحدة : الوصول بالكلية الى المستوى الأعلى الذي يليق بمصر ، وبمعهديها الخالدي الذكر على الزمن ، معهد الاسكندرية ومعهد عين شمس

صحت نية هؤلاء الأطباء العلماء الوطنيين مخلصين على أن يعيدوا لوطنهم سابق شهرته الطبية ، فسددوا ارادتهم ، وشدوا عزائمهم ووحدوا اتجاههم ، واستسهلوا الصعب في سبيل مبتغاهم . وكنت أضع آراءهم موضعها من الاجلال والاحترام ، وأسهر بتنفيذها ، وأبذل جهدي على تحقيقها حتى تم لنا تكوين هذا الصرح الشامخ . وتسنى لنا تدعيم هذا البناء الراسخ الذي لا نزال في إستمداده وجميل ... وتحكم نظامه ، وعظم انتاجه ، عن أعظم كليات الطب في بلاد العالم المتحضرة ، بل ربما يفوق الكثير منها .

ولم تكن الصعوبات التي صادفتنا محصورة في تدبير المال الضروري لإقامة المباني وإعداد المعامل وتوفير الأجهزة الحديثة ، والآلات البديعة ، ونحو ذلك من سائر المعدات الضرورية ، بل كانت الصعوبة الكبرى في تربية الجيل الناشئ تربية علمية عملية خلقية ، بحيث يسهل عليهم الاضطلاع بأعباء الأعمال التي تسند اليهم ، سواء أكانت هذه الأعمال علمية أم ادارية ، وقد نجحنا — بحمد الله — وبفضل توفيقه ، في اعداد الأطباء الموثوق بهم ، فلا يصعب علينا الآن أن نجد منهم القدر الكافي لسد الحاجة التي تلح علينا الآن — بمناسبة المنشآت الجديدة — عن جدارة منهم، وثقة بهم ، واطمئنان من الجميع . وأنا أعد ذلك أكبر مفخرة لنا نحن الأطباء وأعظم ميزة لوطننا الخالد . وقد أصبح من الأمور المقررة الثابتة أن النبوغ الذي كان يسمى فيما مضى نبوغاً شيطانياً قد امحى أثره ، وصار النبوغ الآن على أساس التعليم المتين ، والعمل المثمر ، والخلق القويم . وذلك أكبر أمنية يرجو كل عاقل تحقيقها في جميع الأعمال

فالرجل في سن الستين وما بعدها ، يرى أن أكبر سلوى له عما فات من شبابه ، وأعظم عزاء له عما يتوقعه من قرب انتهاء حياته ، أن يشعر بأنه قد هيأ لورثته المستقبل السعيد ، وأعد لخلفائه في الحياة أسباب الرقي والهناءة ، وأحس أنهم قادرون على صيانة ما خلف ، قادرون على الزيادة فيه ، والنمو والانتفاع به . هنالك يستقبل الموت مستريح الضمير ، مطمئن النفس

وإني أنتهز هذه الفرصة الثمينة لأقدم لخلفائنا الأعزاء علينا ، الحبيبين الى قلوبنا ، نصيحة هي خلاصة التجارب الكثيرة وعصارة البحث الطويل ، تلك هي العناية التامة بالاستمرار في تربية أبنائهم على الطريقة التي ربيناهم عليها والحرص الشديد على موالاة السير بخلفائهم ، في النهج الذي سلكناه معهم بدون توقف أو ابطاء ، فان الزمن يسير بدون توقف وبدون إبطاء ، والأعمار محدودة ، والفرص تمضي وقد لا تعود ، وقد يكون التوقف أو الابطاء لحظة سبباً في تأخر الكلية وداعياً الى تخلفها وهذا ما نحذره ونخشاه ولا يرضاه لها أبناؤها البررة المخلصون . هذه نصيحتي أرجو العمل بها ، وأسأل الله التوفيق لتحقيقها

انتهيت من الكلام في الشؤون الطبية ، وقد آن لي أن أتحدث عن الشؤون الاجتماعية . وأما آثار الكلية في الشؤون الاجتماعية ، فظاهرة واضحة ، فان شباب الجامعة ، وفيهم أبناء كليتنا ، يمتازون نشاطاً وقوة ، وذكاء وحماسة ، وما وجهت هذه القوى الى أي عمل اجتماعي مفيد الا أثمر ثمرها ناضجاً جنياً . فها هو ذا مشروع القرش ، ذلك المشروع الخطير ، الذي بعث بعض الصناعات الوطنية بعد فقدها ، كصناعة الطرابيش وغزل الصوف ، فقد استغنت البلاد بما تصنعه من ذلك عما كانت تستورده ، ونمت بذلك ثروة البلاد ، وتهيأت فرصة العمل لبعض المتعطلين ، فانتفع بجانب من أهم القوى التي كانت معطلة واستفادت البلاد

من القوى التي كانت مهملة . فأصبحت مصدر خير ، بعد أن كانت منبع شر وباتت الأيدي التي كانت بالأمس ، أقرب الى الفساد ، وأسرع الى الشر باتت تلك الأيدي أقرب من النفع ، وأدنى الى البر . كذلك كان لشباب الجامعة أثرهم المشكور ، في مشروع نهضة القرى ورقي المستوى الثقافي والاجتماعي والزراعي والصحي ، بين طبقات الشعب الفقيرة من فلاحين وعمال ، تلك الطبقات التي لا تزال في حاجة ماسة الى مزيد العناية ، ومضاعفة الجهود لتخفيف بؤسها ، وتقليل متاعبها في نواحي حياتها المختلفة ، وهي الكثرة الساحقة في عدد الأمة ، واليد العاملة في تكوين بنائها ، وتنمية ثروتها ، ومعاناة أشق الأعمال فيها

كذلك كان لهم الفضل في انشاء جماعة انقاذ الطفولة المشردة ، بل هي من عملهم ونتاج جهودهم وقد تم بسعيهم هذا انقاذ فئة من هذه الطائفة البائسة . وتنبهت الحكومة الى شرف غايتهم ، فمدت يدها الى معونتهم ، مما خفف آلام البؤس عنهم وأضعف من وضع الشقاء فيهم ، وان كانت حالتهم تحتاج في ازالتها الى مجهود أكبر وأوسع وعمل أشمل وأعم

***

سيداتي وسادتي : ان الجامعة المصرية ، ومستشفى فؤاد الأول ، هما أثران خالدان يضافان الى الآثار الباقية الكثيرة التي خلدت الذكر الجليل ، لمنشئها العظيم ذلك العاهل المصلح المرحوم فؤاد الأول ، فالتقدم العظيم الذي يبدو لنا اليوم في كل فرع من فروع الجامعة الفتية والثمار الشهية التي تجنيها البلاد الآن وستجنيها في أيامها المستقبلة ، كل ذلك بفضل ذلك الملك الراحل الكريم وبعنايته وحسن رعايته . فقد كان واسع الاطلاع ، بعيد النظر ، مغرمًا بالمؤسسات التربية حريصاً على انهاض بلاده وبناء كيانها على أساس من العلم الصحيح والعمل الصالح . وكان لنا المرشد الأمين ، وأيد الحركة القومية ، في جميع أعمالنا ، حتى في سن القوانين واللوائح ، بحكمته وسداد رأيه ، ووصلت الجامعة في مدى قصير الى ما لم تصل اليه نظائرها في الأمد الطويل ، أسبغ الله عليه شآبيب الرحمة ، وأعلى مكانه في جنات النعيم

ومن رعاية الله لنا ، وجميل احسانه الينا ، أن جاءنا بخير خلف لخير سلف ، فكان الفاروق الملك العظيم ، خلفاً لوالده فؤاد الراحل الكريم ، فأفاض على البلاد من فيض شبابه الرشيد ، وبث فيها روح الجد والدأب ، بتيار من عزمه الصادق الحديد وصان بذلك ما ورث من المجد وزاد ، وأعلى في بناء أجداده وشاد ، وتناولت اصلاحاته كثيراً من شئون الحياة المختلفة وامتدت الى النواحي العمرانية الكثيرة ، والأمل كبير ، في أن تصل البلاد في عهده السعيد الى أعلى درجات الرقي ، وأسمى مراتب الشرف ، بين الدول المتحضرة الكبرى

مد الله حياته وصان ذاته ، وأدام على البلاد نعمه ، وفقها بسديد رأيه وحسن تدبيره